تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

الإسلام عند غير المسلمين

الحلقة (5)

باسم الله أبـدأ ..

وفي ظل المصطفى عليه الصلاة والسلام يكون الحديث ..

وبهدي من دين الإسلام يمضي الفكر يلتمس التوفيق ..

أيها الأخوة في الإيمان ..

تسمعون ولا شك عن الفكر المادي الذي يجتاح اليوم حركة الفلسفة المعاصرة في العالم أجمع ..

ويقرأ الكثيرون ولا شك تلك الفلسفة القائلة بالحركة المادية للتاريخ .

ولعله يكون من العجب العجاب كما يقول دهاقنة اللغة أن فيلسوفاً عربياً من غلاة المسلمين وأصدق المؤمنين هو الذي وضع أساس التصور المادي لحركة الأحداث وصناعة التاريخ ..

هذا المفكر الإسلامي العملاق : الغزالي .

ولست صاحب هذا الرأي الكبير في الغزالي .. إنما هو مستشرق نمساوي ينحدر من أصل مجري اسمه دومباي .

فهذا المستشرق توفر في السنوات الناضجة من حياته لدراسة الغزالي والترجمة عن كتبه والتعليق على هامش الترجمة مؤكداً أنه إذ وقع على فكر الغزالي أشبه ما يكون بالواقع على كنز للفكر البشري وأجياله جميعا ...

فالغزالي عند دومباي أول مفكر عرفه التاريخ وصل إلى حقيقة حركة الأحداث في هذه الدنيا : تلك الحقيقة التي أصبحت في القرن التاسع عشر ثم في القرن العشرين جوهر الفكرة البشرية عند الوجود الإنساني والصراعات الدائرة على سطح هذه الأرض بين الأفراد والدول والجماعات المذهبية على اختلافها وتناقض نظراتها .

هذه تقدمة سريعة لحديث نختص به المفكر الإسلامي الغزالي من خلال نظرة المستشرق النمساوي دومباي إلى مؤلفاته وما حوته من فلسفات .

ولد دومباي عام 1756 ميلادية ودرس اللغة العربية في معهد الدراسات الشرقية بفينا والذي أنشأته الامبراطورة النمساوية الشهيرة ماريا تيريز عام 1754 ميلادية .

ثم أتاحت له حياته العملية ان يتوفر على الدرس والتحصيل .. فقد عمل سفيراً لبلاده في مدريد ومن هناك زار المغرب حيث وضع يده على مخطوطات فكرية إسلامية .

كذلك عمل زماناً مترجماً للامبراطور النمساوي مما أتاح له فرص الاتصال بقادة وعلماء الخلافة العثمانيين واقتناء العزيز الصحيح من المخطوطات .

وقد حفلت حياه دومباي مع الفكر الإسلامي بدراسات متنوعة بين أدبية وتاريخية حتى وقعت بين يديه بعض مخطوطات فيلسوف الإسلام المتحرر الغزالي .

وقد عاش دومباي السنوات الأخيرة من حياته والتي امتدت حتى عام 1810 مع فلسفة الغزالي وآرائه في الحياة الدنيا ونظرته إلى الحياة الآخرة .

ويعد المؤرخين هذه السنوات الاخيرة من عمر دومباي مع فكر الفيلسوف الإسلامي الغزالي أقرى سنوات عمره وأخطرها أثراً على الفلسفة الأوروبية وخاصة على الفكر الذي ظهر مع النهضة الصناعية الأوروبية والذي تجلى آخر الأمر في النظرة الجديدة للتاريخ وحركة الأحداث على سطح هذه الأرض .

لقد ترجم دومباي عن الغزالي الكثير ، ولكن الأهم والأعمق أثراً هو ما سجله المستشرق النمساوي على هامش ترجمته لفكر الغزالي ..إنه بحق من أوائل ، إن لم يكن أول من تحدث بالمادية وفكرها الغلاب اليوم مستمداً ذلك من الغزالي نفسه على حد قوله في ترجمته لرسالة المفكر الإسلامي التي يرجع فيه أصل كل شيء في حياة الإنسان إلى حاجته إلى الماديات من طعام وشراب وإشباع للغرائز ..

فالإنسان عند الغزالي وعند جميع الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم اليوم الماديون : " الإنسان بحكم الضرورة جزء من الموقف الذي يوجد فيه "..

ولا يستطيع إلا بتفهمه للموقف ككل ، وبتفهمه لغاياته كإنسان ،وبتفهمه لأهمية الأشياء في تحقيق هذه الغايات،أن يكون الإنسان العامل الأول في تقرير مصير الموقف ، أو بتعبير آخر يكون إنساناً حراً، وهكذا تكون الحرية عند الإنسان نوعاً معيناً من العلاقات مع الأشياء الخارجية عنه "..

هذا الإنسان – كما رآه عند الغزالي المستشرق النمساوي دومباي – له أسلوب في الحياة يحكم ما حوله من علاقات خارجية ، هو بعينه نفس الأسلوب الذي قرره الفلاسفة الماديون في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر أمثال هيجل وانجلز مع فارق وحيد رئيسي وجليل عند الغزالي .. أنه يؤمن بالخالق سبحانه ملكاً قدوساً قادراً جباراً منتقماً عادلاً رحيماً غفوراً "..

يقول دومباي في هامش ترجمته لبعض أفكار الغزالي حول حركة التاريخ والأصل في صناعة الأحداث.

" إن الغزالي يخرج من فكرة وجود الله إلى وحدة الجنس البشري إلى الحقيقة العلمية الاجتماعية الاقتصادية بأنه لا توجد منطقة جغرافية واحدة في هذا العالم قادرة على الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية "..

وينقل المستشرق النمساوي سطوراً كاملة من الصفحات 2274 ، 2275 من مؤلفه العملاق "إحياء علوم الدين" كتاب الصبر والشكر ما يدلل به على سبق الغزالي لكل المفكرين الأوروبيين في تأكيد الحركة المادية للتاريخ .

ولا شك أنه يجدر بنا أن نقرع سمع شباب هذا القرن المادي الفكر والروح بفلسفة الغزالي كما سجلها منذ تسعمائة سنة مع صدق إيمانه بالله وجلال تصوفه وتفانيه في محبته سبحانه : درساً وعبرة لأولئك الذين يقدسون الفكر المادي المعاصر ويرون فيه معجزة فكرية تسحرهم وتبعدهم –بعكس صاحبه ومبدعه الغزالي– عن طريق الله..

يقول الإمام الغزالي مؤكداً مادية حركة التاريخ وما تفرضه علاقاتها البشرية من وحدة للجماعة الإنسانية كما أرادها الخالق سبحانه من خلال الحاجيات اليومية للناس :

" اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها ، توجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح ، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ، ويركبوا الأخطار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك "..

ويمضي الإمام الإسلامي الغزالي ومن بعده يترجم له المستشرق النمساوي دومباي في وضع أساس فكرة الحركة المادية للتاريخ فيقول :

" وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن ، وكيفية الركوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والعمل في البراري ، وتأمل ما تحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن"..

ويأبى الغزالي ومن بعده المستشرق دومباي إلا أن يجسد صورة الحركة المادية للتاريخ بعرض قصة صناعة رغيف واحد من الخبز .

قال الغزالي :

" فإن فتشت علمت أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فانظر السحاب الذي ينزل مادة الماء حتى تنتهي النوبة إلى أعمال الإنسان ، فإذا استدار الرغيف طلبه قريب من سبعة الآف صانع ، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي تتم بها مصلحة الخلق ، وهؤلاء الصناع لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد "..

ويناقش المستشرق النمساوي دومباي –من خلال إعجاب وتقدير بالمفكر الإسلامي– ما تعرض له الغزالي من صراع فنراه يسري على حاجيات الحياة وما تفرضه على التاريخ من حركة مادية للأحداث، فنراه يسبق ترجمته لهذه المعاني عند الغزالي بقوله : " وما أعرض له من فكر الفيلسوف الغزالي إنما هو مجرد إنصاف هزيل لعملاق يتجاوز أرسطو وأفلاطون من الإغريق وابن رشد وابن خلدون من المسلمين ، فالغزالي وهو يقيم حياة الإنسانية بكل ما فيها من صراع على حاجيات الحياة إنما وضع يده على المحور الحقيقي الذي تدور به العلاقات البشرية رغماً عن جميع المذاهب الأخرى .

صدق دومباي .. المستشرق النمساوي الأمين .. فالغزالي يقول في الصفحتين 2276 و 2277 من مؤلفه "إحياء علوم الدين" كتاب الصبر والشكر :

" ثم هذه المحبة تزول بأعراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتناحر ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين ، وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب ، وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرها، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض ".

ويخلص المستشرق النمساوي دومباي من فلسفة الغزالي حقيقة نصرخ بها في أسماع هذا الجيل " إن البشرية ستدين ما بقيت للغزالي بمعرفتها بحقيقة حركة الأحداث والجوهر المادي لحركة التاريخ "..

والله الموفق .. الله المعين ..